فن السونيت عند الشعراء الإنجليز في عصر النهضة

الباحثة: عائشة عبيد

قسم الآداب واللغة العربية

جامعة الإخوة منتوري–قسنطينة

ملخص:

السونيت فن شعري جميل ظهر بادئ الأمر في إيطاليا في عصر النهضة، ثم انتقل بعد ذلك إلى باقي الدول الأوروبية. وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على السونيتة الإنجليزية في عصر النهضة، باعتبار أن الشعراء الإنجليز اهتموا بهذا النوع من الفنون الشعرية، وأبدعوا فيه أيما إبداع.

الكلمات المفتاحية: فن، السونيت ، الشعراء الإنجليز ، عصر النهضة

Abstract : sonnet is a beautiful poetical art appeared initially in Italy in Renaissance, and then he moved to the rest of the European countries. And the aim of the study to identify the sonnet English in Renaissance, considering that poets English cared for this type of poetry.

مقدمة:

تميز العصر الإليزابيثي في إنجلترا بالاهتمام بالأدب والمسرح والشعر؛ إذ عرف هذا الأخير قفزة نوعية من خلال اجتهادات الجامعيين الظرفاء، وإبداعات وليم شكسبير، إذ أضاف هؤلاء روحا جديدة للشعر الإنجليزي، وتمكنوا من تقبل أفكار أجنبية عنهم، طوروا من خلالها أدبهم

وكتاباتهم، بعد أن كان الأديب الإنجليزي متعصبا لأدبه، رافضا لأي شيء قادم له من الخارج. وفي ظل هذه الظروف الجديدة ظهر في إنجلترا فن السونيت القادم من إيطاليا. فما هي السونيتة؟ وما هي خصائصها الفنية؟ وما هي الموضوعات المتميزة التي تناولتها؟ وماهي مميزات السونيتة الإنجليزية على وجه الخصوص؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا المقال الموسوم ب؛ فن السونيت عند الشعراء الإنجليز في عصر النهضة.

1 – تعريف السونيتة: السونيتة عبارة عن فن شعري لاقى رواجا كبيرا بين الشعراء الأوروبيين في فترة من فترات عصر النهضة، وفيما يلي تعريف به.

أ – لغة: اشتقت كلمة sonnet الإنجليزية << من الإيطالية sonetto، أي الأغنية الصغيرة أوالقصيدة القصيرة التي وضعت للغناء، والجذر البعيد هو كلمة son اللاتينية التي تفيد الصوت، وعندنا في العربية كلمة صوت تفيد الأغنية كذلك >>[1]، ومنه فالسونيتة لغة تعني قصيدة غنائية صغيرة.

ب–اصطلاحا: السونيت عبارة عن <<شكل في لقصيدة تتكون من أربعة عشر سطرا، يتكون كل سطر فيها من عشرة مقاطع صوتية، ولقوافيها نظام خاص يلتزم به الشاعر>>[2]، فهي إذن عبارة عن قصيدة شعرية صغيرة، لها نظام فني خاص تكتب وتنظم وفقه.

2 – السونيتة في إنجلترا:

تأخر فن السونيت الذي ظهر في إيطاليا في حدود القرن الثالث عشر، ثلاثة قرون من الزمن حتى وصل إلى إنجلترا؛ ذلك أن الشعراء الإنجليز المعتدّين أشد الاعتداد بتقاليدهم، والمزدرين لكل ما هو أجنبي غريب، لم يستحسنوا هذا الفن الشعري الجديد ولم يعطوه أهمية كبيرة، << إذ لم تصل هذه المقطوعة الشعرية إنجلترا إلاّ في القرن السادس عشر، عندما قام الشاعران وايات وسراي بتقليد المقطوعة الشعرية الإيطالية >>[3]، و<<كان انتشار فن السونيت في إنجلترا متأخرا وبطيئا، فقد ترجم تشوسر Geoffrey Chaucer(...) مثلا إحدى سونيتات بترارك لكنه لم ينظم سونيت، وكان أول من نظم سونيت سير توماس وايت Thomas Wyatt ، ودوق سراي Earl of Surrey >>[4]، لكن<< انفجارا سونيتيا بدأ في التسعينات من القرن 16م، وتحولت كتابة السونيت إلى هوس، وعام 1591م نشر كتاب فيليب سيدني (...) أستروفيل وستيلا Astrophel and Stella ، الذي أضرم نار الولع بالسونيت، وجعل كتابتها متعة وحرفة يتنافس فيهما الشعراء، ونشر بعده بقليل كتاب ادموند سبنسر Edmund Spencer (...) أموريتي Amoretti عام 1595م >>[5]، وتحولت كتابة السونيتة في بداية ومنتصف سنة 1590 م إلى صرعة، اعتمد فيها وايات وغيره على التقليد البتراركي، واكتسبت دفعة جديدة سنة 1591م عندما نشر كتاب السير فيليب سيدني أستروفيل وستيلا، ومع أن هذه الظاهرة – السونيتة– انتهت فجأة – سنة 1596 م أو 1597م

– كما بدأت، إلاّ أن الفترة الوجيزة التي ازدهرت فيها شهدت سلسلة كبيرة من الأعمال السونيتية، التي تحمل اسماء أكثر الشعراء شهرة في ذلك الوقت وهي Amoretti :لإدموند سبنسر وغيرها من الأعمال المذكورة آنفا. و على الرغم من هذا الكم الكبير من الكتب والإنتاج الأدبي حول السونيت، إلا أنه << لم ينل نجاحا ملموسا في هذا المضمار إلا الشعراء Sydney وSpencer وShakespeare ؛ حيث أن قصائدهم فقط وقلة من القصائد الناجحة من الرعيل الثانوي أمثال Drayton وDanilk وConstable باتت تقرأ حتى اليوم>>[6]، لهذا سيكون التركيز في ما يخص دراسة السونيتة الإنجليزية على أبرز الشعراء وأنجحهم أي شكسبير وسبنسر وسيدني، بالإضافة إلى كل من توماس وايات ودوق سراي، باعتبار أن لهما الفضل الكبير في إدخال السونيتة إلى إنجلترا، وتعريف الإنجليز بهذا الفن الشعري المبتكر .

أ – السونيتة عند توماس وايات:

كان توماس وايات رجلا << دبلوماسيا عرف أوروبا جيدا وعمل فيها >>[7]، كما أنه كان سياسيا من حاشية الملك، ويقال أنه كان له علاقة حب خفي بينه وبين الملكة آن بولين نفسها، ولكنه بالرغم من ذلك <<استطاع أن يحتفظ بثباته وبرأسه فوق جسده أيضا في بلاط الملك هنري الثامن المضطرب >>[8]، توفي سنة 1542م. لكن ما يهمنا من حياته أنه قام بترجمة عدد من سونيتات بترارك، وكان له الفضل الكبير برفقة إيرل أوف سراي في تعريف الإنجليز بالغنائية، و<< قد تمكن من أن ينقل إلى الإنجليزية تلك الصورة الإيطالية للسونيت ذات الأربعة عشر بيتا . وقُدّر له النجاح (...) ولو أن آثار

الإجهاد ظاهرة على شعره، وهذا الإجهاد مترتب على نقل قالب شعري جديد إلى اللغة الإنجليزية، وتذليله كي يناسبها بعد فترة تحكمت فيها الأهواء في بعض موازين الشعر>>[9]. ولم يقتصر عمل وايات على الترجمة فقط، بل قام بنظم سلسلة سونيتات حملت شيئا جديدا؛ حيث نجد <<موقفا أو موضوعا مناقضا لبترارك، وهو رغبة العاشق في أن يخلع نير العشق عن عنقه>>[10]، وهذا ما يظهر جليا من خلال العناوين التي حملتها سونيتاته فنجد مثلا : The abused lover see his folly and intend to trust no more , lover describe his being stricken with sight of his love , of doubtful love .

والتي تعني على التوالي: العاشق المظلوم يرى حماقته ويقرر عدم الثقة مجددا، عاشق يصف كيانه المنكوب على مرأى من حبيبته، عن حب مريب، وغيرها من العناوين التي تدور في نفس الموضوع الذي تبنّاه شكسبير في ما بعد في سونيتاته.

و لنأخذ سونيتة العاشق المظلوم يتخلى عن الحب the lover abused renounceth love كمثال:

My love to scorn , my service to retain,	أ
Therein , methought , you used cruelty	ب
Since with good will I lost my liberty	ب
To follow her which causeth all my pain	أ
Might never woe yet cause me to refrain	أ

ب But only this , which is extremity ,

ج To give me nought , alas , nor to agree

أ That , as I was , your man I might remain

ه But since that thus ye list to order me

و That would have been your servant true and fast

و , Displease you not , my doting time is past

ج And with my loss to leave I must agree

ز , For as there is a certain time to rage

time such madness to assuage [11]

تتحدث هذه الغنائية بصفة عامة عن مدى تسلط المحبوب، الذي يسلب من حبيبه خدماته ويجعله عبدا مطيعا له بينما في المقابل يزدري حبه، فهو المحبوب المتعود على القسوة، الذي لم يجن منه حبيبه سوى الحسرة والامتناع وتلقي الأوامر، والمطالبة بتنفيذها حالا والغضب في حال عدم التنفيذ، ومن هنا تزيد حسرة العاشق وخسارته وتضيع أوقاته وحريته، ويزداد ألمه فهو بنيّته الحسنة يمنح بصدق ولا يأخذ شيئا بالمقابل، ومع هذا الضغط الشديد واستمرار الحال على ما هو عليه، يقرر هذا الأخير القيام بثورة مجنونة لا وقت فيها للتهدئة، فهي ثورة تمرد وعصيان.*و تدور جل سونيتات وايات حول موضوع التمرد ورفض قسوة المحبوب وتسلطه، والحب عنده يأس وضعف وخضوع للمحبوب، وعطاء دون مقابل وثورة فكرية يثيرها القلب المعذب، فنجد تعابير تصف حالة العاشق اليائس والمعذب بدقة متناهية ك: العاشق المهجورthe deserted love

،تغيير الفكر of change in mind ، العاشق الحزينthe lover unhappy وغيرها . *وإذا كانت سونيتات توماس وايات حملت موضوعا معينا وثابتا، فهي بالمقابل لم تتميز ببنية تقفوية ثابتة، فنجد البنى التالية مثلا: – أب ب أ أب ب أ ج د ج د ج د كما هو الحال في السونيتة الأولى التي تحمل عنوان the : lover for shamefastness hideth his desire within his fathful love وغيرها . والنظام أ ب ب أ أب ج أ ه وو ج ز ز والذي يتجلى في سونيتة the lover abused renounceth love

–أ ب ب أ أ ب ب أ ج د د ه وو وهو الشائع نوعا ما في العديد من سونيتات وايات، وغيرها من البنى التقفوية الأخرى التي نلاحظها عند قراءتنا لسونيتات الشاعر. ويمكننا تفسير هذا التضعضع في البنية التقفوية عنده بما ذكرناه سابقا، حول مسألة الإجهاد المترتب حول نقل هذا الفن الجديد والمبتكر، من اللغة الإيطالية إلى اللغة الإنجليزية، وبالتالي محاولة تطويع النظام التقفوي لهذا الفن حتى يتناسب مع اللغة الإنجليزية وخصائصه. إذن فما نستطيع قوله هو أن وايات نقل السونيتة الإيطالية إلى الانجليزية، وأثناء هذه العملية لم يستطع نقلها كما هي من الناحية الشكلية، لكنه أضاف لها موضوعا جديدا وشيئا من شخصيته .

ب – السونيتة عند هنري هوارد (إيرل أوف سراي) :

اقترن اسم إيرل أوف سراي دائما باسم توماس وايات، << في تواريخ الأدب. حتى لكأنهما صاحبين لمحل أقمشة، ومع ذلك فإن لكل منهما شخصيته

المعروفة المتميزة>>[12] .ولد إيرل أوف سراي سنة 1517م من طبقة ارستقراطية، لكنه للأسف <<كان من النبلاء الذين لقوا حتفهم على خشبة المقصلة وهو في الثلاثين من عمره>>[13] ، بسبب تهمة الخيانة العظمى سنة 1547م .وعلى الرغم من قصر المدة الزمنية التي عاشها هنري هوارد ، إلا أنه يعتبر من مؤسسي النهضة الشعرية في إنجلترا؛ حيث أنه قام بتجربة مهمة اعتبرت الأعظم في حياته، وهي <<ترجمته الشعرية للكتاب الثاني والرابع من إنياذة فرجيل Vergil's Aeneid، وما كانت لتخطر لسراي على بال عظمة التراث الذي خلفه باستعماله للنظم غير المقفى، فقد دخل إلى الإنجليزية على هذا النحو كوسيلة للترجمة عن اللاتينية ثم أصبح فيما بعد، على يدي مارلو Marlowe الأسلوب المتبع في المسرحية الشعرية الانجليزية، واستخدمه شكسبير وغيره من ناظمي المسرحية إلى يومنا هذا>>[14] . هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فللشّاعر الفضل الكبير رفقة وايات في إدخال السونيتة إلى إنجلترا، التي لم يقتصر دوره فيها على مجرد نقل فن شعري من بلد إلى آخر، بل << قدّم إسهامين هامّين : فقد طور نظام القافية البترارکي، وأسس نظام التقفية الانجليزي وهو : ababcdcdefefgg، كما أضاف موضوعا جديدا هو الصداقة بين الذكور، وقد تبنى شكسبير كلا الإسهامين>>[15] فيما بعد، هذا بالإضافة أنّ سونيتاته لم تعان حالة من الإجهاد على غرار غنائيات وايات ؛ ونقصد بنظام التقفيةababcdcdefefgg أب أب ج د ج د ه وه وزز ، ويكون على هذا النحو :

Love , that liveth and reigneth in my tought	أ
That built his seat within my captive breast ;	ب
Clad in the arms wherein with me he fought	أ
Oft in my face he doth his banner rest .	ب
She , that me taught to love , and suffer pain ;	ج
My doubtful hope , and eke my hot desire	د
With shamefaced cloak to shadow and restrain ,	ج
Her smiling grace converteth straight to ire	د
And coward love then to the heart apace	ه
Thaketh his flight ; whereas he lurks , and plains	و
His purpose lost , and dare not shew his face	ه

For my lord's guilt thus faultless bide i pains. و

Yet from my lord shall not my foot remove ز

Sweet is his death , that takes his end by love[16] ز

ويبدو <<أننا ندين إلى سراي بشكل الموشح الانجليزي أو الموشح الشكسبيري ثلاث رباعيات وديستيك واحد كما نلاحظ >>[17]، فالرباعيات هي أ ب أ ب ، ج د ج د ، ه وه و، والديستيك هو البيتين الأخيرين اللذين تتوحد فيهما القافية زز، وفيهما تكون خلاصة أونتيجة كل ما سبق. وهذا ما نلاحظه ونلمسه في هذه السونيتة التي تحمل عنوان complaint of a lover rebuked أي شكوى وتوبيخ محب ، وهي تتحدث عن مدى الحب الذي تملّك قلب وتفكير الشاعر، فهو عشق أقام في صدره وتركه يعاني في صمت تحت وطأة الآلام، وأقام حربا ضروسا في نفسه بين الحب والرغبة الشديدة، والجرأة والأمل المتردد، ضد كبح جماح النفس والخجل وجبن الفؤاد والغضب، ومع تربص المحبوب به وضياع هدفه وعدم قدرته على التحرك، وزيادة الألم تنتهي السونيتة في البيتين الأخيرين، بأمنية هذا العاشق بموت محبوبه حتى تكون نهايته هي نهاية هذا الحب كذلك**.و يبدو أنها غنائية موجهة لرجل لا لامرأة، وذلك من خلال مناداته للمقصود بالحديث بألفاظ سيدي my lord ، وبصيغة المذكر الغائب هو he و hisكذلك كلها تدل على مذكر. و هناك

سونيتات موجهة لسيدته مثل سونيتة complaint that his lady ، التي تميزت عن باقي السونيتات باختلاف طفيف في الرباعيات، فكانت هي الوحيدة التي جاءت على شكل أ ب ب أ ج د د ج ه وو ه زز، والتي يقول فيها:

I never my lady lay apart	أ	رباعية
Her cornet black , in cold nor yet in heat ,	ب	
Sith first she knew my grief was grown so great ,	ب	
Which other fancies driveth from my heart	أ	
That to myself I do the thought reserve,	ج	رباعية
The which unwares did wound my woful breast	د	
But on her face mine eyes might never rest	د	
Yet since she knew I did her love and serve ,	ج	رباعية
Her golden tresses clad always with black	ه	
Her smiling looks that hid thus evermore	و	
And that restrains which I desire so sore	و	
So doth his cornet govern me alack !	ه	
; In summer , sun ,in winter's breath , a frost	ز	ديستيك
Whereby the light of her fair looks I lost (18)	ز	

وتتحدث السونيتة عن سيدة جميلة أحبها الشاعر حبا شديدا ويبدو أنها شقراء ذهبية الشعر، متّشحة بسواد الحزن رغم جمالها، معتمرة قبعة سوداء في

الحرارة والبرد، ومع حبه الشديد لها ورغباته التي تسوق قلبه تجاهها وتجعله يخدمها، ومع علمها بحقيقة مشاعره ، يبقى السّواد يغطي خصلاتها الذهبية وابتسامتها الجميلة، فيحس كأن قبعتها السوداء تتحكم فيه، فهي في الصيف شمس وفي الشتاء أنفاس، وبين شكلها الجميل وحزنها يضيع الشاعر، فإيرل أوف سراي لم يجنِ من الحب سوى الويلات والعذاب، وهذا جل ما يعبر عنه تقريبا في سونيتاته.

ج – السونيتة عند فيليب سيدني:

ولد الشاعر <<فيليب سيدني Philip Sidney في بلدة بنزرست Penshurst، لأسرة أرستقراطية، وتلقى تعليمه في جامعات أكسفورد وكمبردج. عهدت إليه الملكة إليزابيث الأولى بعدة مهام دبلوماسية لكنها نفته من بلاطها عام 1580 لمعارضته الشديدة لفكرة زواجها من دوق آنجو الفرنسي. كتب معظم أعماله ما بين عامي 1580 و1583 ثم تصالح مع الملكة ومنحته لقب فارس، وذهب إلى هولندا في أثناء حربها مع إسبانيا، وتوفي في آرنهم Arnhem بعد أن جُرح في إحدى المعارك>>[19]، وكان الشاعر من أهم أدباء البلاط في عصر النهضة فقد <<أتقن حرفته ودافع عن الشعر بوصفه شيئاً يليق بالرجل المهذب ذي المكانة المرموقة. وفي مقالته الشهيرة «الدفاع عن الشعر» (1583) The Defence of Poesie. حثّ الشعراء على إبداع أعمال متنوعة تدل على خصب الموهبة في الشعر الغنائي، وفي فن الدراما الذي شهد نهضة كبرى على يد شكسبير. وكان وراء نهضة الشعر

آنذاك محاولات شارك فيها سيدني بتقليد الأقدمين، عن طريق الجمع بين آراء أرسطو حول كون الشعر محاكاة للطبيعة، وميول أفلاطون لعدّ عبقرية الشاعر موهبة شخصية تقرب من الجنون، مع إضافة النزعة الإنسانية التي بدأت في البروز مع كتاب عصر النهضة. وناقش أيضاً المبادئ الواجب مراعاتها في المأساة والملهاة، واختتم بعرض الأوزان العروضية وعلاقتها باللغة الإنكليزية.>>[20]، هذا إلى جانب سونيتاته التي نشرت سنة 1591 تحت عنوان أستـــــــروفيل وستيـــلا Astrophel and stella، وهو العمل الذي زاد فن السونيت تألقا وشهرة في إنجلترا؛ حيث أصبحت السونيتة بفضله هوسا وحرفة يتنافس فيها الشعراء الإنجليز .والكتاب – أستروفيل وستيلا – عبارة عن <<مجموعة موشحات من سيرة ذاتية موضوعها الحب المعاكس >>[21]، ونقصد بالحب المعاكس هنا عدم الخضوع التام للحبيبة، التي وضعها كل من دانتي وبترارك في منزلة عالية وصلت حد القداسة في بعض الأحيان، فعلى الرغم من تقليد الإنجليز لهذه الأهواء الإيطالية، فقد <<هزأ بها سير فيليب سيدني (...) ومع ذلك خضع لسلطانها بعض الشيء، إلا أن بعض قصائده sonnets فيها دعوة إلى توخي الواقع>>[22]، وربما تعود سخريته من العشق الأعمى للمحبوبة ودعوته بالمقابل إلى توخي الواقع ، للظروف التي مرّ بها في مجال الحب فهو الرجل الذي أحب مرّتين ، فلم يجن سوى الخيبة بزواج المحبوبة بآخر وبقائه وحيدا. وربما تعود كذلك لشخصيته المقاتلة وروح الفارس فيه، الذي رأى أن الحب ينسي الإنسان واجبه وهدفه الأعلى في الحياة، وهذا ما يعترف به في بعض سونيتاته. حيث يقول ألفريد وليم في هذا الشأن: in the later sonnets>>

Sidney returns to his lament that his love was leading him to forget his higher mission>>[23] أي أن الشاعر رثى

نفسه وحبه الذي قاده إلى نسيان مهمته السامية ***، وهذا ما نجده في هذه السونيتة:

Leave me, OLove, which reachest but to dust And thou, my mind, aspire to higher things; Grow rich in that which never taketh rust What ever fades, but fading pleasure brings Draw in thy beames, To that sweet yoke where and humble all thy might lasting freedomes be

. Which breakes the clowdes, and opens forth the light

That doth both shine, and give us sight to see

O take fast hold ; let that light be thy guide

In this small course which birth drawes out to death

And think how evil becommeth him to slide , Who seeketh heav'n, and comes of heavenly breath

Then farewell, world ; thy uttermost I see :

Eternall Love maintaine thy life in me(24

هنا حديث عن كلام الشاعر الموجه إلى الحب الذي لا طائل منه بأن يتركه وشأنه؛ فعقله مشغول بأشياء أسمى بكثير، أشياء تكبر ولا تصدأ أبدا،

ومهما تتلاشى فهي تجلب المتعة، وترسم الإشراقة وتذلل قوة ذلك النير الجميل أين تدوم الحرية ويمنح الضوء والبصر، الذي سيكون الدليل في هذه الدورة الصغيرة من الولادة إلى الموت، وتشغل التفكير عن كيف للشر أن يجعل المرء يحيد؟ فمن يطلب الجنة، ويودع العالم للمنتهى هنالك الحب الأبدي الذي يحافظ على الحياة في مكنون الشاعر**** ؛ أي أن الحب الحقيقي عنده لا يوجد في الدنيا التي فيها مشاغل وأولويات أهم للإنسان، بل هو في العالم الآخر حيث يكون أبديا في الجنة. وتتضمن هذه السونيتة – كما نلاحظ – الكثير من التأمل الفلسفي والجمال اللفظي، الذي يحيلنا إلى عالم الخيال للبحث عن حقيقة الحب التي يريد الشاعر إيصالها لنا، وهي سونيتة تتبع نظام التقفية أ ب أ ب ج د ج د ه وه وزز ،و هو النظام السائد في سونيتات سيدني إلى جانب نظام أب ب أ أ ب ب أ ج د ج د زز، دون إغفال ذكر أن بعض سونيتاته خرجت عن هذين النمطين، لكن الشاذ لا يقاس عليه. وتتمتع سونيتات سيدني بجمالية لفظية وبمعان جميلة، فيها الكثير من التأملات الفلسفية حول الحب والألم وعذاب القلب، كما أنه << كان من أوائل الذين استنوا تقليداً آخر في مثل هذه الأشعار، هو استخدام الأسماء المستعارة .Stellaوفي هذه القصائد تصور روائي لقصص الحب؛ ففيها وصف للأمل واليأس والتوسل والمعاناة والجراح والإغراء والمشاعر الملتهبة. وتمثل ستيلا» الفكرة الأفلاطونية عن نزعة الخير التي يجب، في رأيه على كل فن حقيقي أن يمثلها ويجسدها>>[25]. ويعتقد أن ستيلا ليست مجرد رمز أو فكرة أفلاطونية بل هي شخصية حقيقية، وبالتالي فسونيتات سيدني فيها جزء خفي من أسراره، وبدراستها ربما يتم اكتشاف شيء جديد بخصوص حياته الشخصية، حيث يقول ألفريد وليم بهذا الخصوص:

<<in this failure of Elizabethan historians and Sidney's : own early biographers to give any clear account of his relations with the Stella of his poems , we must fall back on an examination of the poems themselves as the only resources left us for piecing together the scanty facts and allusions which we have so far recorded>>(26)

أي أن مع هذا الضعف والتقصير من قبل دارسي العصر الإليزابيثي ومن قبل كتاب سيرة سيدني، الذين عجزوا عن إعطائنا أي حقيقة واضحة عن علاقة الشاعر بستيلا سونيتاته، وجب علينا العودة إلى فحص ودراسة القصائد نفسها باعتبارها المصدر الوحيد، الذي ترك لنا مجال جمع الحقائق الهزيلة، وبعض التلميحات التي سجلت حتى الآن. ويعتقد بعض الباحثين أن ستيلا هي نفسها بنلوب Penelope الحبيبة الثانية التي تزوجت وتركته، ويصرون على أن شخصيتها واضحة جلية خلف اسم ستيلا من خلال السونيتات الأولى – حـــــــــوالي الثلاثين سونيتة الأولى – ، لكنها تصبح غامضة في السونيتات الأخرى*****، وهذا شيء يشترك فيه شكسبير مع سيدني فالكثير يعتبر أن سونيتات هذا الأخير أيضا تخفي أسرار حياته الشخصية أيضا، ومهما يكن من أمر فعند قراءة سونيتات سيدني ندرك تماما لماذا تحولت كتابة هذا الفن إلى هوس عند الإنجليز بفضلها، فهي حقا سونيتات جميلة تحمل معانٍ راقية تغوص في النفس البشرية، وتمثل شخصية سيدني الذي كان <<باحثاً وشاعراً وناقداً ودبلوماسياً، ورجل بلاط ينادم الملوك، ومثالياً رافقته شهامة الفرسان حتى وفاته.>>(27)

د – السونيتة عند إدموند سبنسر:

ولد إدموند سبنسر سنة 1552م، وهو من أرقِّ الشعراء الإنجليز وأكثرهم شهرة قبل شكسبير، و<<أستاذ من أساتذة الفن الشعري (...) لا نعرف عن حياته إلا القليل؛ إذ درس في جامعة كامبردج وكان محبوبا من أهل الظرف والأناقة (...). ولم يكن في وسع أحد من أفراد عائلته أن يقدم إليه عونا ما، وهو يجتاز الطريق الشاقة من الجامعة إلى البلاط، وقد أتاح له فنه التعرف إلى عدد من الأصدقاء كما أتاح له ذكاؤه التعرف إلى عدد آخر. وربما ساعدته شخصيته، ولكننا لا نعرف عنها إلا القليل. وقد اختاره إيرل أوف ليسستر Earl of Leicesterليكون في خدمته ، فتبعه إلى إيرلندة>>[28] ، وعاش فيها حتى توفي سنة 1599 م. لقب سبنسر بأمير شعراء عصره؛ فهو الذي <<كان يشعر بالرغبة في السمو باللغة الانجليزية وإغنائها بالكلمات الفخمة التي تستمد جذورها من التقاليد العتيدة الشائعة، التي رسختها اللغة المحلية، وكان يطمع في أن يكتب باللغة الانجليزية أشعارا لها من العظمة وعلو الشأن ما للملاحم الكلاسيكية،(...) وكان يتطلع إلى ما دون القصر الملكي؛ إلى الشعب بأوهامه ومعتقداته، بل كان ينوي بإخلاص أن يصلح من حال وطنه>>[29]، حيث << صور في شعره نزعاته الإنسانية العميقة وحبه لوطنه في إطار رمزي يعبر عن حياة الرعاة بأفراحهم وأتراحهم، مستلهما في ذلك أشعار ثيوكريتوس وفرجيل، وإن تميز عنهما بمذاقه القومي الخالص>>[30]، وفي شعره يتلاقى أيضا<<القديم الذي ينتمي للعصور الوسطى والعصر الحديث الذي ينتمي

لعصر النهضة ؛ يتلاقى المنهج الكلاسيكي مع منهج المحدثين، وتتلاقى اتجاهات القصر مع الاتجاهات الشعبية.>>[31]، لهذا كان له العديد من المؤلفات المهمة والتي كان لها الأثر في الأدب الانجليزي مثل الملكة الحورية fairie queen ، وديوان تقويم الراعي the Shepherd's calendar وغيرها، و<< أوحى له غرامه بإيرلندية بسلسة من الموشحات أموريتي 1595م >>[32]، ومن الطريف أنه تزوج هذه الإيرلندية في ما بعد، ولم يكن نصيبه من الحب مثل سابقيه مجرد حلم مستحيل التحق. ويتكون ديوان amoretti من 89 سونيتة تحدث فيها عن الحب والجمال، وهي غنائيات تميزت بالإمتاع والتشويق و<<عذوبة اللفظ ودقة السبك ومتانة البناء>>[33]؛ حيث أن سبنسر طور <<صيغة للسونيت عرفت باسمه، نظامها التقفوي abababcbccdcdee>>[34]، أي ما يقابله أ ب أ ب ب ج ب ج ج د ج د زز ولنأخذ السونيتة الآتية كمثال على هذا النظام التقفوي:

Long-while I sought to what I might compare أ

Those powerfull eies , which ب

lighten my dark spright

Yet find I nought أ

on earth , to each I dare

Resemble th'ymage of their goodly light ب

Not to the sun ; for they doo shine by night ب

Nor to the moone ; for they are changed never ج

Nor to the starres ; for they have purer sightب

Nor to the fire ; for they consume not everج

Nor to the lightning ; for they still perseverج

Nor to the diamond ; for they are moer tenderد

Nor unto cristall ; for nought may them severج

Nor unto glasse ; such baseness mought offend herد

, Then to the maker selfe they likest beز

Whose light doth lighten all that here we seeز

(35)

تتحدث هذه السونيتة حول سعي الشاعر منذ فترة طويلة إلى التفكير، ومحاولة عقد مقارنة بين عيون حبيبته المضيئة القوية بأجمل ما وجد في الطبيعة، لكنه توصل إلى أن مقارنتها بأي شيء على هذه الأرض تحتاج للجرأة؛ فهي لا تشبه أشعة الشمس لأنها تضيء ليلا، ولا القمر لأنها لا تتغير مثله، ولا للنجوم فبصرها أنقى من هذه الأخيرة، ولا للنار لأنها لا تستهلك دائما، ولا للبرق لأنها دؤوبة دائمة اللمعان، ولا إلى الماس فهي أكثر عطاء منه، ولا للزجاج فهذا إساءة بحق هذه العيون، فضياؤها هو الذي ينير كل ما نراه *، إذن فهي مصدر و هي كما نلاحظ قصيدة جميلة غنية بأرقى . النور الذي يضيء الكون كله وأجمل التشبيهات، التي أعطتها رونقا وجمالية كبيرة جعلتنا لا نستطيع التوقف عند قراءتها، وأخذت بخيالنا إلى بعيد وأثارت فينا الفضول، حول هيأة هذه العيون التي فاق جمالها كل جمال عهدناه على وجه الأرض .و هناك سونيتة

أخرى وتتحدث عن مدى عذاب الشاعر في عشق محبوبته When i behold that beauties wonderemen

And rare perfection of each goodly part

Of natures skill the onely complement; I honor and admire the makers art
But when i feele the bitter balefull smart Which her fayre eyes unwares doe worke in mee

That death out of theyr shiny beames doe dart ; I thinke that i a new Pandora see ,
Whom all the gods in councell did agree Into this sinfull world from heaven to send That she ti wicked men a scourge should bee , For all their faults with which they did offend . But , since ye are my scourge , i will intreat , That for my faults ye will me gently beat (36)

يقول الشاعر إن عيون حبيبته مزيج من الجمال الساحر والعذاب الشديد؛ فهو عندما ينظر إلى ذلك الجمال المبهر النادر الكمال في الطبيعة، يقف إعجابا وإجلالا لصانعها لكن سرعان ما يذهب هذا الإعجاب، ليشعر بالمرارة عندما يتذكر عيون حبيبته المؤذية الماكرة، وما تفعله به سهامها القادمة من ذلك الإشراق المشع الشبيهة بالموت، مما يجعل هذه العيون بندورا جديدة أجمعت كل الآلهة على أنها من حولت هذا العالم المذنب، من الجنة إلى لعنة الطرد منها، فهذه العيون هي بلاء على الرجل بسبب كل ما أذنبه، ولكن مع هذا فهو يصر على أن عيون محبوبته بما فيها من قوة تدمير هي عذابه الذي لم ولن يعالج منه، ذلك

هو خطؤه وتلك العيون سوف تتغلب عليه دائما بلطف******. وهذه السونيتة رائعة التصوير لعيني الحبيبة التي تجمع عذاب بندورا المليء بالكوارث والمصائب، وسهام الموت الخاطفة لقلب الشاعر، فهي بالتالي المعذبة له والمتسببة في ذنوبه وأخطائه، وفي نفس الوقت هي عيون مشرقة كالشمس ذكية ماكرة قوية التدمير، ومرض عضال لا رجاء في الشفاء منه، لكنها بالمقابل عيون تحمل الهدوء واللطف وتعالج قلب الشاعر المثخن بجراح الحب وتتغلب عليه بلطف البلسم، إذن فهي نادرة شديدة السحر والجمال والقوة والروعة، أثارت في نفس الشاعر وقلبه حربا ضروسا في مشاعره وأحاسيسه، مما تجعل فضولنا يزيد عن ماهية هذه العيون التي تفوقت في جمالها وغضبها على الطبيعة نفسها، وتجعل سؤال كيف كانت هذين العينيـــــــن يـــــــــا ترى؟ يطرح نفسه. من خلال السونتتين السابقتين نلاحظ أن غنائيات إدموند سبنسر، تميزت باللفظ المتين والقافية المنتظمة والأسلوب المشوق، الذي جمع بين أسلوبي العصور الوسطى وعصر النهضة، والعبارات المتقنة والخيال الجميل، فهو بالتالي سما بالسونيتة وأضاف لها الكثير، تاركا بذلك بصمته الخاصة على هذا اللون الشعري الجديد .

٥ – السونيتة عند شكسبير:

أضافت السونيتات الكثير من التميز لوليم شكسبير فوق تميزه بين شعراء وأدباء عصره؛ ف<<مثلما كان أغزرهم وأبرزهم في كتابة المسرحيات الشعرية التراجيدية والكوميدية والتاريخية، كان أيضا أغزرهم وأبرزهم في كتابة السونيتات التي بلغ عددها 154، والتي دفعت النقاد بسبب قيمتها الأدبية والإنسانية إلى حد القول أن شكسبير لو لم يكتب شيئا سواها، لكانت كافية

لوضعه في مكان الصدارة بين شعراء العالم>>[37]، يعتقد أن الشاعر كتبها بين سنتي 1595م –1596م، وتميزت هذه السونيتات بجمالياتها الفنية واللغوية .كما تميزت بنظام فني خاص؛ فهي قصائد ذات بنية تقفوية محددة وهي أب أب ج د ج د ه وه وزز، مثل: [38] .

المقطع الأول	From fairest creatures we desire increase,	أ
	That thereby beauty's rose might never die	ب
	But as the riper should by time decease ,	أ
	His tender heir might bear his memory ,	ب
الثاني ا	But thou, contracted to thine own bright eyes,	ج
	Feed'st thy light's flame with self-substantial fuel	د
	Making a famine where abundance lies ,	ج
	Thyself thy foe, to thy sweet self too cruel	د ,
المقطع الثالث	Thou, that art now the world's fresh ornament	ه
	And only herald to the gaudy spring	و
	Within thine own bud buriest thy content,	ه
	And, tender churl, mak'st waste in niggarding	و
المقطع الرابع	Pity the world, or else this glutton be	ز
	To eat the world's due, by the grave and thee . [38]	ز

و يبدو أن <<شكسبير نظم سونيتاته والصرعة في أوجها، ولكنه أعطى تركيبة جدلية؛ فهي تبدأ عادة بفكرة تعبر عنها الأبيات الأربعة الأولى، الأربعة التالية، ثم تناقضها – أو تضيف إليها جديدا – الأربعة الثالثة، وحاسم في البيتين الأخيرين >> [39] ، ولنأخذ السونيتة 19 كمثال فهي تقول:

أنت أيها الزمن المفترس، أكهم براثن الأسد،

واجعل الأرض تفترس المخلوقات الحلوة التي أنجبتها،

وانتزع الأنياب الباترة من فكي النمر الفتاك،

واحرق العنقاء المعمرة في نار دمائها،

اخلق مواسم للغبطة ومواسم للفجيعة وأنت تهرع عابرا،

وافعل كل ما تشاء، يا خاطف القدمين يا زمن،

بالعالم الشاسع، وبكل حلاواته السائرة إلى أفول:

لكن ثمة جريمة نكراء واحدة أمنعك أن ترتكبها،

لا تحتزن بساعاتك جبين حبيبي الجميل،

ولا ترسمن عليه التجاعيد بقلمك العتيق،

واسمح له أن لا يمسه مس في مجراك،

ليظل أنموذجا للجمال للأجيال الآتية.

و مع ذلك ، افعل أسوأ ما بوسعك أيها الزمن

فإن حبيبي رغم إساءاتك، سيحيا فتيا أبد الزمان في شعري[40].

تتحدث السونيتة في الأبيات الثمانية الأولى عن فكرة حديث الشاعر مع الزمن الذي يدمر كل ما هو قوي وجميل، فالزمن هو الكفيل باقتلاع أظافر الأسد وأنياب النمر الشرس فلا تصبح ذات قيمة أوصالحة لاصطياد الفرائس، وهو من يجعل الأرض تستقبل أجمل الناس في باطنها فالكل سيموت ويقبر ذات يوم، ومن أقوى من الزمن ليستطيع التغلب على العنقاء المتجددة الحياة، فالشاعر يخبره ويعطيه الضوء الأخضر لفعل ما يشاء مع الكائنات جميعا، فالزمن سريع الخطى ومتقلب الأجواء كفيل بتدمير كل ما هو جميل وإضعاف كل ما هو قوي، لكن تأتي الأبيات الثلاثة التي بعدها بفكرة جديدة وبكلام وأوامر شديدة اللهجة من طرف الشاعر فهو ينهى هذا الزمن المدمر لكل شيء، أن يكون حبيبه وفتاه بين ضحاياه فهو يحذره من أن يجعل قلمه وساعاته، أداة تحفر تجاعيد على هذا الوجه النضر الملائكي، حتى يظل هذا الفتى أيقونة للجمال جيلا بعد جيل، لكن ولإدراك الشاعر أن حديثه لن يأتي بنتيجة مع الدهر القاسي. لتأتينا نتيجة السونيتة بعد هذه الحرب الكلامية الفعلية بين الزمن وشكسبير، بأن يتحداه باستهزاء أن يفعل ما يشاء بحبيبه لأنه وجد طريقة أخرى يخلد بها جماله رغم عبث الدهر، ألا وهي أشعاره الخالدة، أي أن السونيتة الشكسبيرية تتميز ب <<تغيير يشبه الفتلة في الفقرة الثالثة منها، وكثيرا ما تأتي في البيت التاسع وهي أحيانا تشكل انقلابا في المقولة التي تكون قد تشكلت حتى تلك اللحظة، أو نقضا لها أو ردا عليها، أي انعطافا عنها بشكل أو آخر>>[41].من خلال ما سبق نرى أن السونيتات الشكسبيرية تميزت عن غيرها من سونيتات الشعراء

الذين كتبوا في هذا المجال، بالعديد من الخصائص التي جعلتها أكثر تألقا وعبقرية؛ ولبن جونسون رأي لطيف حول السونيتات الشكسبيرية حيث يقول : << عند مطالعتك لهذه القصائد ستجدها واضحة وبسيطة بانسجام ، فيها نغمات رقيقة لا تقلق الفكر بل تنعشه ، لا مادة غائمة معقدة تضلل العقل بل منطق سليم.>>[42]

الخاتمة: من خلال ما تقدم، توصلنا إلى مجموعة من النتائج هي:

1- السونيت فن شعر جميل انتقل من إيطاليا إلى إنجلترا، عن طريق توماس وايات وهنري هوارد، ولاقى نجاحا كبيرا عند الشعراء الإنجليز في فترة من الفترات.

2- شهدت السونيتة الإنجليزية تغيرات كبيرة على يد الشعراء الانجليز من الناحية الفنية، إذ كان لكل شاعر نظام تقفية خاص بسونيتاته؛ فبينما لم يلتزم توماس وايات بنظام معين، اعتمد هنري هوارد نظام الرباعيات – الديستيك–المتمثل في، أ ب أ ب ج د ج د ه وه وزز.وربما يفسر عدم الاستقرار في نظام التقفية في هذه المرحلة، بأن نقل فن شعري من لغة إلى أخرى يتطلب وقتا حتى يتكيف ذلك الفن الشعري الجديد، مع اللغة الإنجليزية.

3- لم تعتمد سونيتات فيليب سيدني على نظام هنري هوارد التقفوي كليا، بل كانت هناك قصائد خرجت عن هذا النظام.

4- عرف النظام التقفوي استقرار واضحا في كل من سونيتات إدموند سبنسر التي اعتمدت أ ب أب ب ج ب ج ج د ج د زز، وسونيتات وليم شكسبير التي تميزت بنظام أ ب أ ب ج د ج د ه

وه وزز، مما يدل على تطور فن السونيت وتكيفها مع اللغة الإنجليزية، بفضل اجتهادات شعرائها.

5- لم يكتف الشعراء الانجليز بإضافة أنظمة تقفوية جديدة لفن السونيت فحسب، بل كان لكل واحد منهم بصمته الخاصة في جانب الموضوعات التي عالجتها سونيتاتهم؛ فنجد عذاب الحب عند وايات وسراي، بينما يأخذنا سيدني في تأملاته الفلسفية وتصوراته عنه. كما نجد الجمال عند سبنسر، والحب والجمال والعذاب والخيانة عند وليم شكسبير.

6- عرفت السونيتة في إنجلترا العديد من التطورات؛ إذ اختارها الشعراء الإنجليز للتعبير عن مشاعرهم تجاه من يحبون، وكل واحد منهم أعطي السونيتة قالبا ورونقا خاصا، وكل منهم ترك بصمة معينة في هذا الفن الشعري الجميل.

الإحالات:

1. وليم شكسبير: الغنائيات، تر.عبد الواحد لؤلؤة، هيأة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات، ط1، 2013م، ص8.
2. وليم شكسبير: سونيتات شكسبير الكاملة، تر.بدر توفيق، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط1، 1988م، ص6.
3. باحثة الجومرد : مقطوعات شكسبير الشعرية، مجلة الجامعة، العدد 5،دار الكتاب للطباعة والنشر، دط ، 1982م ، ص41 .
4. وليم شكسبير: سونيتات، تر، كمال أبو ديب، دار الصدى، الإمارات، ط1، 2010م، ص 48 .
5. المرجع نفسه، ص49 .
6. باحثة الجومرد، المرجع السابق، ص 41 .
7. وليم شكسبير : سونيتات ، تر، كمال أبو ديب ، ص 49 .
8. إيفور إيفانز : موجز تاريخ الأدب الإنجليزي، تر، شوقي السكري وعبد الله عبد الحافظ، المكتبة الأنجلومصرية للنشر،القاهرة، ط2 ،1960م ، ص21 .
9. المرجع نفسه، ص20 .
10. وليم شكسبير : سونيتات، تر. كمال أبو ديب ، ص 49.
11. Nicolas, Nicholas Harris : the poetical works of Sir Thomas Wyatt with a memoir , little, Brown and company ,Boston 1854 , p 11.

*ترجمة ذاتية

12. إيفور إيفانز، المرجع السابق ، ص 20.
13. المرجع نفسه ، ص 20 .
14. المرجع نفسه ، ص 20 .
15. وليم شكسبير : سونيتات ، تر. كمال أبو ديب ، ص 48 ، 49 .
16. –Earl of surrey : the poetical works of Henry Howard Earl of Surrey with a memoir , little Brown and company ,Bostan, 1864 , p 11.
17. فريدريك ريغار : الأدب الإنجليزي ، تر. محمد حمود ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،ط1، 2008م ، ص 18 .

**ترجمة ذاتية

18. Earl of surrey : the poetical works of Henry Howard Earl of Surrey with a memoir, p 16 .

19. متاح على الشبكة : محمد توفيق البجيرمي، فيليب سيدني، www.arab -ency.com، 8/12/2014م، 10:27 .

20. الموقع نفسه.

21. فريدريك ريغار، المرجع السابق، ص 18 .

22. إيفور إيفانز، المرجع السابق، ص 21.

***ترجمة ذاتية

23. Alfred William : Sir Philip Dindney's Astrophel and stella , D.Stott ,London , 1888 , p xxv ,xxvi .

****ترجمة ذاتية

24. Alfred William : Sir Philip Dindney's Astrophel and stella, p xxix

25. محمد توفيق البجيرمي : فيليب سيدني ، الموقع السابق.

26. Alfred William : Sir Philip Dindney's Astrophel and stella, p ,xvii.

***** ينظر، Alfred William : Sir Philip Dindney's Astrophel and stella, pxx.

27. محمد توفيق البجيرمي : فيليب سيدني ، الموقع نفسه.

28. إيفور إيفانز : موجز تاريخ الأدب الإنجليزي، تر، شوقي السكري وعبد الله عبد الحافظ، ص 23 .

29. المرجع نفسه، ص 23 ، 24 .

30. تيليارد :الأدب في عصر شكسبير، تر. نبيل حلمي، دار المعارف، القاهرة، دط،، 1971م، ص 22 .

31. إيفور إيفانز، المرجع السابق ، ص24 .

32. فريدريك ريغار ،الأدب الإنجليزي، المرجع السابق، ص18 .

33. تيليارد، المرجع السابق ، ص 22 .

34. وليم شكسبير : سونيتات ، تر كمال أبو ديب ، ص 49 .

35. –Edmund Spencer : Amoretti , The Laurel press MCMI ,New York 1901 , p ix .

36. - Edmund Spencer : Amoretti , p xxiv.

37. وليم شكسبير : سونيتات شكسبير الكاملة، تر . بدر توفيق ، ص 7 .

38. W.G . Graig :Shakespeare complete works,Oxford university press , London , 1943 , p 1106.

39. وليم شكسبير: السونيتات، تر. جبرا إبراهيم جبرا، مكتبة الشرق الأوسط ، بغداد،دط، دت، ص3 .

40. وليم شكسبير : سونيتات، تر. كمال أبو ديب، ص 96 – 97 .

41. وليم شكسبير : سونيتات، تر. كمال أبو ديب، ص 27 .

42. باحثة الجومرد : مقطوعات شكسبير الشعرية، ص46 .